

# تعقيبان

على محاضرة د. زكي نجيب محمود  
« الحضارة وقضية التقدم والتخلف »

## التعقيب الاول للدكتور سهيل ادريس

ايها الزملاء الكرام ،

استمعنا في يوم الافتتاح الى محاضرة هامة وقيمة للدكتور زكي نجيب محمود عن « الحضارة وقضية التقدم والتخلف » وهي تتميز بالوضوح والصرامة ، وقد اثار فيها المحاضر الكريم جملة من القضايا التي تختل في حياتنا اليوم مكانا بارزا وتطرح امامنا خيارات عدة يتوقف عليها مصيرنا كله في حضارة الساعة الراهنة .

ولكن ارجو ان تسمحوا لي بتقديم عدد من الملاحظات على آراء الاستاذ المحاضر على رأسها ملاحظة اساسية هي طريقته التجزيئية للحضارة ، وبالتالي للانسان الذي ينتج الحضارة . فالاستاذ المحاضر يذهب الى ان العقلانية وحدها هي العنصر الضروري والكافي لتعريف الحضارات وقياس درجاتها .

على انه في القسم الاول من محاضراته يقول « ان عالم الشعور وما ينتجه ضروري لكل حضارة » ، ولكنه لا يلبث ان يقول : « ان كلمة « التقدم » بالنسبة للآداب والفنون ليست بذات معنى » ، فكيف يكون عالم الشعور ضروريا لكل حضارة ثم يكون تقدمه غير ذي معنى ؟ وكيف تكون الآداب والفنون ضرورية في الوقت الذي تكون فيه العقلانية وحدها ضرورية وكافية ؟ انها اذا كانت كافية فان عالم الشعور في منطق الكاتب ، لا ضرورة له لتكوين الحضارة في حين يعترف اولاً بأنه ضروري .

ونحن نعتقد ان هذه المفارقة ناتجة عن مفهوم خاص للاستاذ المحاضر لفكرة العقلانية فهو يضع بينها وبين الشعور والوجدان حجبا صفيقة ، ويقيم حواجز غير قابلة للعبور في حين ان الانسان مجموعة تركيبية مندمجة من العقل والوجدان في وقت واحد ، وان تداخل العقلاني والوجداني في تفكير الانسان وسلوكه هو من العمق والتشابك بحيث تقع في تحطيم الانسان اذا شئنا ان نميز بينهما لنقيم من كل منهما عالما مستقلا تمام الاستقلال عن العالم الآخر .

اننا لا نفهم كيف يكون العقل منفيا عن عالم الآداب والفنون في كل حضارة ، لا نفهم اطلاقاً ان تكون نمة حضارة قائمة على العقل

والعقلانية دون ان يكون للفنون والآداب فيها دور هام . حتى الامثلة التي استشهد بها الاستاذ المحاضر حين ذكر عصر المأمون وعصر اسرة مدينتشي . فقد كان ازدهار الآداب والفنون فيهما سمة اساسية من السمات الحضارية في تلك العهود .

وفي هذا المضمار يذكر المحاضر الخليل بن احمد حين يستخلص عروض الشعر استخلاصا بلغ ، على حد قوله ، « حدا مذهلا من كمال العقل الرياضي ودقته » ولكن هل كان يفيب عن الخليل حين كان يستخلص عروض الشعر انه انما يتوجه الى موضوع الشعر بالدرجة الاولى ؟ لان الشعر هو « قبل كل شيء » التعبير عن الوجدان وعن العقل ، والعروض يأتي ليكون تقنيا « لشكله » فحسب . ثم ان المحاضر يطلب منا « الا ننظر الى الماضي لانه نظر الى الوراء ، على حين ان التقدم يقتضي ان نوجه النظر الى امام » . ولكنه بائقابل يطلب منا ان ننظر الى الحضارة الاوروبية الاميركية ( اي الرأسمالية ) ، فيحصر الحضارة بذلك ، مهملا كل حضارة اخرى قائمة ، كالحضارة الشرقية او الحضارة الاشتراكية . وما قول سيادته حين تصبح الحضارة اليابانية الصينية بعد فترة من الزمن هي حضارة العصر ؟ أليكون دورنا ان نتلقفها متخليين عن الحضارة الاوروبية الاميركية ؟ انه يوضح ان الانحصار في الماضي هو انحصار في نمط واحد من انماط الحضارة . اليس الانحصار في الحضارة الاوروبية الاميركية انحصارا في نمط واحد من الحضارة كذلك ؟

وحيث يتحدث عن مزايا الحضارة الاوروبية الاميركية ، نراه يتفنى بمدى الحريات السياسية والاجتماعية وسواها ، ولكنه يابى ان ينظر الى بعض المظاهر الاحضارية ، بل المنافية لكل حضارية ، في هذه الحضارة . لماذا لم يتحدثنا المحاضر الكريم عن تناقض مفهوم الحرية في الحضارة الاميركية القائمة وعن التمييز العنصري فيها ، فاذا كانت تعني الرجل الابيض فهي الرخاء والنعيم والانطلاق من كل قيد ، اما اذا كانت تعني الرجل الاسود ، فهي القمع والاضطهاد وحرمان هذا الانسان من كل حقوقه والعمل على استئصاله . اذا كانت هذه الحرية تعني الصهيونية واسرائيل ، فيجب ان تأخذ شكل مساعدات هائلة ببلابين الدولارات ودعم المطالب الصهيونية بالقضاء على الشعب الفلسطيني ، اما اذا كانت تعني العرب ، فهي معاملتهم كبشر من الدرجة الثانية والاستهانة بهم ومساعدة اسرائيل لاحتلال اراضيهم .

ولكن لنعد الى تحليل هذا المفهوم للحضارة بين التكنولوجيا والادب

والفن ، بين العقلانية والوجدانية . فالدكتور زكي نجيب محمود يرى ان التقدم لا يكون الا في معرفتنا العلمية ، واما ما هو خاص بالوجدان ، « فلا اظن ان الام المصرية الثكلي تبكي فقيدها على نحو اكمل من بكاء الامهات بالامس » ، فهل صحيح ان التعبير الادبي لم « يتقدم » ولم « يتخسر » منذ الخنساء ، وان الادب الفزلي لا يزال واقفا في تعبيره عند حدود فيس في عشق ليلاه ؟ ان الاستاذ المحاضر يلقي بهذه النظرة كل ما احرزها الادب من تطور وتخسر طوال القرون الماضية ، لا الادب العربي وحده بل كل ادب اخر اسهم في تكوين الحضارات العالمية . والواقع ان آفة هذه النظرة تكمن في امكان التفكير بان الحضارة تبنى فقط على العقل ولا اهمية للوجدان فيها ، وفي امكان التفكير بان العقلانية يمكن ان تتطور وتتقدم بمزج من الادب والفن . ان ارتباط تقدم العقلانية والوجدانية هو ارتباط عضوي وجذري وكناهما تؤثر في الاخرى بقدر ما تتأثر بها . ومن هنا ما نسمعه اليوم ، ومنذ فترات بعيدة ، وسنظل نسمعه الى فترات طويلة قادمة ، من اصوات المفكرين والفلاسفة في ادانة المظهر المادي المحض الذي تفرزه العقلانية وحدها ، بالمفهوم الذي يراه المحاضر ، لتكوين حضارة القرن العشرين . وغير خاف على احد ان الحضارة بهذا المظهر تحدث اليوم ردود فعل عنيفة ، قد لا نقر بعضها ، في ضرورة تخفيف ضغط الآلة التي يسميها المحاضر « الاجهزة » والعودة الى الطبيعة واطلاق الطاقات الروحية للانسان ، بل حتى في الدعوة الى الفناء المدرسة واقامة مجتمع بلا مدارس يحاول فيه الانسان ان يقيم التوازن بين قواه المادية وقواه النفسية والروحية . وربما كانت جائزة نوبل بالذات دليلا ذا معنى على اختراع العقل المدمر وتدخل الوجدان الانساني للحد من تدميره .

ومرد الامر كله هو الاجابة على السؤال التالي : ما غاية الحضارة بذاتها ؟ ليست هي سعادة الانسان ؟ وهل العلم وحده ، القائم على العقل وحده ، كاف لتأمين سعادة الانسان ؟ ان الحضارة لا تهتمنا بذاتها الا بقدر ما توفر لنا السعادة والتقدم والحرية ، ونعتقد ان اماننا تفكيرا طويلا ، بل شكنا عميقا بان تستطيع الحضارة الاوروبية الاميركية ، بكل مظاهرها الحاضرة ، توفير هذه السعادة للانسان بصورة عامة ، وللانسان العربي بصورة خاصة .

ان المحاضر الكريم الدكتور زكي نجيب محمود يدعونا ، لكي ندخل في عصرنا ، الى « ان تصبح قيمنا قائمة على علمنة وعلى تقنية وعلى منفعية ... فاذا لم تعجبنا هذه الصفات ، لكونها غريبة على ثقافتنا الموروثة ، كان علينا احد امرين : اما ان نلوي عنق العصر حتى يرى الدنيا باعيننا ، واما ان ننسحب من العصر الى حيث شئنا ان يكون الاختفاء الى ستر الظلام . »

ولكن لماذا يحصرنا المحاضر ، بروح من الانتقائية الواضحة ، في هذين الاختيارين وحدهما ؟ ان اماننا اختيارات اخرى : اختيارات كثيرة بين العلمنة وحدها بالمفهوم الضيق الذي طرح علينا وبين الانسحاب من العصر . ان اماننا على الاقل اختيارا ثالثا ، هو نبسي العلمنة بمفهوم واسع متطور يأخذ من الحضارة القائمة ، اوروبية اميركية كانت ام شرقية اشتراكية ، ويأخذ من التراث يعي منه فيما كانت في اساس الحضارة العربية السابقة ( ما دام الدكتور زكي نجيب محمود يقر بوجود مثل هذه الحضارة ) ويطور معطيات حضارية جديدة يستغلها لصالحه في استنباط شخصيتنا القومية وكيونتنا الانسانية التي بها نستطيع ان نسمهم بالحضارة القائمة ان لم نستطع خلق حضارة انسانية جديدة .

اما رؤية المحاضر الكبير التي انهى بها بحثه فليسمح لنا بان نصارحه بانها « توفيقية » لانها مملاة بروح « تسوية » ، غريبة على المقدمات . فهو يعتقد بان ما يزيل القلق عندنا اذا اردنا استبعاد افناء

ثقافتنا في ثقافة غيرنا ، هو ان ينحصر تفردنا الثقافي في تلك الجوانب التي ليست هي مقياس التقدم الحضاري ، يعني بها جوانب العقيدة والفن ... شريطة « ان نتخسر بحضارة العصر فسي اخص خصائصها » وهكذا يريدنا ان نفرد بما ليس مقياسا للتقدم الحضاري ... اهذا كل ما يطلب منا كرامة لها تاريخها الحضاري ، وهي مدعوة بالتالي الى المشاركة الحضارية الجديدة ؟ ونسال الدكتور : وما يكون الموقف اذا تعارض هذا التفرد الثقافي ، كالعقيدة مثلا ، مع التقدم الحضاري ؟ كيف نحل هذه الازمة ؟ السنا نعيش بالفعل هذه الازمة اليوم ، نتزيا بالتقدم الحضاري بينما نحن في الداخل متخلفون ، متخلفون بسبب ما يسميه بالتفرد الثقافي بالذات ؟ اليس فيما يطلبه الدكتور منا تكريس لواقع متخلف ؟

ان العقلانية والعلمانية اللتين طالبنا بهما طوال ساعة نضر بهما في اخر المطاف روح من الصالحة هي التي تجعلنا الان نعيش حياة ازدواجية تأخذ صورة شبه كاريكاتورية بين مظهر براق نقنسه من لمعان الحضارة المادية وداخل متخلف هو الذي دعينا في هذه الندوة الى معالجته .

واخيرا فان المحاضر (1) يذهب الى ان تطور الادب والفن لا يمكن قياسه ، لانه لا يتقدم . فما هو مقياسه او دليله على انه لا يتقدم ؟

ان الادب والفن هما اللذان فتحا الباب واسعا لبعض العلوم ، من مثل موضوع الجنس والعقل الباطن ، فهو الذي ادى الى تقدم الطب وعلم النفس على ما يعترف فرويد نفسه . ثم ان هناك عدة تطورات علمية سبقتها تطورات ادبية واثر بها . التطور الجمالي مثلا هو جزء من التطور الحضاري ، وهو يؤثر في الانسان بيولوجيا ونفسيا . والموسيقى مثلا آخر : اليس لها تأثير كبير في الانسان على الصعيد البيولوجي والسيكولوجي ؟ ويعرف علم الاجتماع عدة مقاييس لقياس التطور منها كمية انتاج الكتب والمجلات وعدد القراء وعدد مرتادي المسارح وعدد اجهزة التلفزيون والراديو ، وكلها من انتاج الفنون والاداب . وبعض العلوم تطورت كذلك بدعا من الفلسفة ، والفلسفة بدورها تطورت من الاساطير والخرافات ..

وعلى ذلك يكون تفريق المحاضر بين العقلانية والوجدانية محض تفريق مصطنع لا يستجيب حتى للمقاييس العقلانية التي يطلب اعتمادها وحدها .

\*\*\*

## التعقيب الثاني

### للدكتور عبدالله عبد الدايم

طبيعي ان تكون ضالعة الاستاذ الكبير الدكتور احمد زكي نجيب محمود ، وهو يسعى الى تحديد معنى الحضارة وخصائصها ، الوصول الى رؤية فكرية تستطيع ان تولد موففا عمليا قادرا على ان يدفع المجتمع العربي دفعا اوضح واقوى في طريق التقدم . فالمسألة التي تعنيه وتعني سواه هي البحث عن « الاطار الفكري » الذي ينبغي ان يهدي الامة العربية في مسيرتها نحو بناء حضارتها .

(1) في رده على ملاحظتنا السابقة .

في ظاهره لتاريخ الحضارات الا محاولة يريد من خلالها ان يستخرج باي ثمن ، من تفريه لتلك الحضارات ، الفكرة السبقة التي افترضها سلفا والتي فرضها عليه تأمله للواقع العربي وللحضارة الغربية. ونحن لا ننكر عليه ما انتهى اليه من تقرير لاهمية « العقلانية » اذا كان هدفه مجرد البحث في ثغرات الوجود العربي في ضوء التجربة العالمية الحديثة . اما ما نكره فهو ان ينتقل من ذلك الى تقرير حقيقة عامة تتصل بجوهر الحضارات كلها وتتصل بالتالي بانطلاق الواجب لكل حضارة .

ذلك ان السؤال الاول الذي لا بد من طرحه ، هو التالي : هل « النظرية العقلانية » التي توجه الحضارة الحديثة ، سبب لهذه الحضارة ام نتيجة ؟ وهل اجترأ هذه « النظرية العقلانية » هو مجرد « بلسم » تستطبع ان تبتلعها اي امة فاذا بها « تنحصر » بفضله ، ام ان وراء هذه « النظرية العقلانية » للامور عوامل اعمق ، بدونها لا تكون الحضارة ولا تكون « العقلانية » ؟ هل « العقلانية » نقطة الانطلاق في بناء اي حضارة ، ام انها في الحقيقة مرحلة متقدمة تلجا اليها الحضارة الحديثة خاصة ، وتلجا اليها لجوؤها الى احدي نتائجها التي تؤدي الى مزيد من نموها وتطورها ؟

ولتوضيح هذا التساؤل ، نضع الحقائق الآتية :

١ - لم تكن « العقلانية » ، بالمعنى الذي حددناه وبالمعنى الذي نستخرجه من بحث الدكتور زكي ( نعني « رسم الطرق المؤدية الى الاهداف » ) ، هي الصفة المصاحبة للحضارات القديمة عامة ، وللحضارات الثلاث التي استشهد بها صاحب البحث ، حضارة اليونان وحضارة العرب في ايام المأمون وحضارة فلورنسة في اوروبا . ويرجع الخطأ في تحليل الدكتور زكي في هذا المقام الى انه ينتقل انتقالا غير

المقبية على الصفحة ١٤٩

صدر حديثا

عن

منشورات دار الانوار ببيروت

## دراسات فلسفية

محاولة ثورة في الفلسفة

للاستاذ تيسير شيخ الارض

يطلب من المكتبة العباسية بدمشق

ومن هنا يقوم بالتنقيب عن الشرط اللازم لانطلاق اي حضارة ، ليكون امتلاك هذا الشرط سبيلنا الى ابتداء حضارتنا العربية المنشودة. وينتهي به الطاف ، بعد تجوال في رحاب الحضارات قديمها وحديثها ، الى العثور على « مصباح ديوجين » الذي يكشف له ضالته ، فيرى في النهاية ان معيار اي حضارة وحرك انطلاقتها هو النظرة العقلية ، والاحتكام الى العقل ، وتقليب سلطان « العقلانية » على اي سلطان آخر .

ونحن نكبر هذه الدعوة الى « العقلانية » في مجتمع عربي يشكو حقا من غلبة « القبيية » على الواقعية ، ومن سيطرة « الارتجال » على الرسم المسبق للامور ، ومن العجز عن القبض على ناصية الاحداث ومسيرة المستقبل افتقادا منه للتخطيط العقلاني الذي يرسم الاهداف واضحة ويحدد سبل الوصول اليها . ونحن نؤمن معه ان مقتل الجهد العربي ومصدر الهدر والضياح فيه ، غياب المنهج العقلاني الذي يجيد الاستخدام الامثل والافضل للموارد المتاحة .

بل نحن نندك اعمق الادراك ان اشد ما يميز الحضارة العلمية التكنولوجية الحديثة ، ذلك السعي للسيطرة على الاحداث بل للسيطرة على المستقبل ، عن طريق التحديد المسبق لخطوات السير ومراحل الوصول . ويسعد هذه الحضارة العلمية التكنولوجية في مطامعها هذه ، ما تولده من تفنيات عقلية منطقية تنظيمية ، تؤدي الى « عقلنة القرارات » كما يقال ، والى رسم الطرق المؤدية الى الاهداف ، بل الى رسم « تاريخ الغد » كله كما يقال . ولا ادل على ذلك من توالد تلك الاساليب الحديثة في الادارة والتسيير ، ومن تكاثر الطرائق التي تقوم « بالتنبؤ التكنولوجي » ( من مثل طرائق « التحليل الاجرائي » و « تحليل النظم » وسواها ) . بل لا ادل على ذلك من ان كثيرا من الباحثين الذين يحاولون الكشف عن « هوة التخلف » بين البلدان المتقدمة وبين سواها ، يردون هذه الهوة الى « الهوة الادارية التنظيمية » ، ويرون ان المسألة في النهاية ليست مسألة « مادة رمادية » وتفوق في القدرات الدماغية بمقدار ما هي مسألة « تنظيم » وتفوق في الادارة والتسيير ( على نحو ما يرى « شريبر » مثلا في حديثه عن التحدي الاميري ) (١) .

من هنا نحن مع الدكتور زكي نجيب محمود عندما يريد ان يؤكد هاتين الحقيقتين : نحن معه عندما يريد ان يرد العجز الذي تعاني منه مسيرة التقدم العربي الى عجز في الرسم العقلاني لسبل الوصول ، ونحن معه عندما يرى ان السمة الاولى للحضارة العصرية التي نحياها هي القدرة على التحكم في الكون حاضره ومستقبله ، عن طريق « عقلنة القرارات » والامساك العملي المسبق بمجرى الاحداث وصورة المستقبل .

غير اننا نختلف مع الدكتور زكي نجيب محمود عندما يجاوز تقرير هاتين الحقيقتين ، وعندما يحاول ان يستخلص منهما نتائج تتصل بأميرين اثنين : اولهما تعريف الحضارة عامة ، وثانيهما تحديد سبل الانطلاق نحو بناء اي حضارة استنادا الى ما تكشف له من اهمية « التخطيط العقلاني » في عصرنا .

والحق ان نقطة الضعف في منهج الدكتور زكي ، كما تبدو لنا ، تكمن في انه يصدر عن موقف مسبق ونظرة مبينة املاها تأمله في واقع التخلف العربي وفي منطلقات الحضارة الحديثة . وما تحليله الموضوعي

(١) انظر الترجمة العربية لكتابه - نشر دار النهضة ، بغداد .

## تعقيب الدكتور عبداللّه عبد الدايم

تابع المنشور على الصفحة - ١٢ -

منطقي بين مفهومين متباينين لكلمة عقلانية . فهو يشير اصلا الى العقلانية بمعناها الحديث، بمعنى التنظيم المنطقي لسبل الوصول ، حتى اذا عرّج على الحضارات القديمة المذكورة عنى بالعقلانية شيئا اخر وهبط بها الى مجرد اللجوء الى حكم العقل ، ورفض ما سواه من اهواء وعواطف وتقاليد . وشتان بين المفهومين .

٢ - على اننا حتى اذا قبلنا جدلا هذا المفهوم الثاني للعقلانية (اي مجرد الاحتكام الى العقل بهذا المعنى الواسع الغامض ) فهيات ان يكون « حكم العقل » هذا معيارا من معايير الحضارة قديما وحديثا . وهيات ان تكون دفقة الحضارة في امة من الامم نابعة من سلطان العقل وحده . وهل كانت حضارة الفراعنة ، على جلالها ، حضارة يسيّرهما العقل دون الهوى والمعتقد والدين ؟ وهل كانت حضارة يونان نفسها ، حضارة سقرات و افلاطون و ارسطو ، حضارة يقودها العقل ؟ هل كان « عالم المثل الافلاطوني » و « جمهورية افلاطون » و « ما بعد الطبيعة » لارسطو ، مجرد عمل عقلي بعيد عن الاهواء الدينية والتصورات العاطفية والتفكير المثالي الفارق في « ما وراء الطبيعة » وفي الاسرار الغيبية التي ترجع جذورها الى الفيثاغورية والاورفية والكثير من الديانات السحرية القديمة ؟ او لم تكن « اسباطة » اكثر احتكاما الى العقل المنظم من « اثينا » ، ومع ذلك لم تكن لها مثل حضارتها شأوا ومنزلة ؟

والحضارة العربية ايام المأمون ، هل كانت حضارة مقياسها العقل ، ام كانت وليدة الديانة الاسلامية وامتزاجها بالثقافات الاجنبية ؟ وهل كانت مباحث المتزلة و علماء الكلام ومحاورات « خلق القرآن » منازع يسودها الاحتكام الى العقل ، ام محاولات لتأييد الدين ؟

والامثلة لا تحصى على الحضارات القديمة التي كانت في مظلمها حضارات دينية قبل ان تكون عقلية ، والتي كانت تستقي حرارتها وقوتها من معين العاطفة والانفعال ، قبل معين العقل والتنقل . ولا ندرى اين نجد الطابع العقلي في حملات الاسكندر الكبير الحضارية ، او في فتوحات الاسلام ، او حتى في فترات « نابوليون » ، على ما فيها من طابع حضاري واضح .

لقد ولدت هذه الحركات الحضارية جميعها نظما عقلية وانتجت تراثا عقليا ، بالإضافة الى تراثها الوجداني والاخلاقي ، ولكن محركها ورائدتها لم يكن العقل ، بل كان تلك الدفقة من الايمان برسالة ، ذلك الايمان الذي لا يكون العقل بدونه الا ثمرة جافة ونسفا بلا حياة .

٣ - وهذه الملاحظة الاخيرة تكاد تنقلنا الى جوهر الامر : هل دفقة الحضارة في امة من الامم مجرد تفكير عقلي منظم « يعقل » ويضبط ، ام انها قبل هذا وفوق هذا تفجر انفعالي يسقي جذوره من رؤية « رسولية » للكون ومن ايمان عاطفي عميق يدفع الى تغيير صورته وتجديد موقع الانسان فيه ؟

ان العقل في النهاية مجرد اداة لتنظيم الكون ووسيلة « لفبركة الاشياء » كما يقول برغسون . انه في اعماله اداة احجام وليس اداة اقدام . واذا لم يكن وراءه تلك الرؤية الانسانية المبللة بالانفصال والايمان برسالة ، ظل عاجزا عن ان يمارس دور التنظيم ومهمة « التقييد » .

ولعل الدكتور زكي يشعر بذلك حين يقصر عمل « العقل » على

رسم الخطوات الواصلة بين مبدأ مفروض وهدف مطلوب . غير ان المسألة كلها في بناء الحضارات ليست في مرحلة الوصل هذه ، بل في تحديد المبدأ وصياغة الهدف . اما مرحلة الوصل ، تعني عمل العقل ، فتأتي نتيجة طبيعية لوضوح الاهداف والايمان بها ، ولا بد ان يولدها الايمان بالهدف عاجلا او اجلا على شكل من الاشكال .

٤ - وقد يفودنا هذا الى ابحاث متعمقة ومتأنقة في جوهر « التطور الخلاق » وفي طبيعة الوثبة الحيوية المبدعة لدى الافراد والامم ، غير اننا نكتفي في هذا المجال - اجتنابا للبحث الفلسفي المجرد - بما تقرره الدراسات النفسية الحديثة التي تفرق اليوم تفريقا حاسما بين « الذكاء » وبين « الابداعية » ، والتي ترى في الاول مجرد طاقة تنظيمية ، تصنف بالمحافظة والاتباع وتقتصر على تنظيم الامور من خلال واقع محدد ، بينما ترى في « الابداعية » - وهي جوهر الحضارة ومنطقها - طاقة خلاقة فعالة تفتق الحلول وتولد الاتفاقيات وتثاي عن المالوف . انها تصف الذكاء بأنه طاقة مجتمعة منظمة ( éconvergent )

بينما تصف الابداعية بانها طاقة جواله آفاقه مفتحة للمسائل ( divergent ) والامم المبدعة - كلافراد المبدعين - هي التي استطاعت ان تولد الجديد وأن تبحث عن آفاق انسانية جديدة وان تغالف المالوف والسائد ، وان تقامر لتوليد حياة بشرية محدثة ورؤية كونية مبتكرة . اما دور العقل فيأتي بعد ذلك كله ، ونتيجة لذلك كله . ولعل الابحاث النفسية التي قامت حول « العبقرية » تستطيع ان ترشدنا ايضا في هذا المجال . انها تسخر ممن رد العبقرية الى «الذكاء التفوق» ، وترى ان في العبقرية دوما ذلك التفجر البركاني الانفصالي الذي لا يكون اكبر الاذكاء بدونه سوى نباتات لا ماء فيها ولا حياة .

٥ - وآية هذا كله ان الحضارة كل لا يتجزأ ، وان العقل فيها جانب من جوانبها لا يعمل الا اذا اكتملت سائر الجوانب . وهل أدت سيطرة العقل المنطقي الصوري في العصور اوسطى الأوروبية الى توليد حضارة ؟ او لم يكن « دوران العقل حول ذاته » بسبب تعاليم ارسطو كما تبنتها الكنيسة ، سببا في عمق الحضارة الغربية طوال قرون ؟ او لم يأت « بيكون » بمنطقه الجديد ( Novum organum ) ليدهض منطق ارسطو ، ولينكر الفكر الذي يدور حول نفسه ، وليدعو الى تفجر الحضارة عن طريق الملاحظة والتجربة وتقري الكون والاشياء ؟ وهل الحضارة الحديثة في جنورها سوى نتيجة للخروج من سجن العقل الصوري ، الى واقع الحياة الحي الخصب ؟ وهل كان عصر النهضة سوى عودة الى غنى الطبيعة والى تراء العاطفة والى الصلة الانفصالية بين الانسان والكون ؟ او لم تفجر الحضارة الحديثة بعد ذلك ادبا وفنا وشعرا وموسيقى وفلسفة كما تفجرت علما وتجربة وتقنية ؟

٦ - والحق ان شرارة التقدم والحضارة هي دوما وليدة اللقاء بين قطبين : الاول هو قطب الايمان برسالة والعزم على بناء تجربة انسانية جديدة ، والثاني هو قطب المهاد العقلي والعلمي والتكنولوجي الذي يقدم لذلك الايمان اسلحته ويرسم له « سبل الوصول » الى الاهداف . وما قامت حضارة في تليد القرون وجديدها الا نتيجة للقاء بين الايمان بهدف وبين رسم وسائل بلوغه . وكما ان الايمان بالهدف اذا لم يكن مسلحا بالوسائل العقلية والعلمية والتنظيمية يظل عاجزا ،

فالوسائل لا تجدي ولا تجد منطلقها الا عندما تتضح الرؤية وتستبين الغاية وتكتمل الدفقة الانفعالية اللازمة للايمان بها وحملها . بل ان الايمان بالهدف فادر على ان يولد وسائله ، اما العكس فغير صحيح .

وهل من حضارة اعرق تسلحها بالعقل والعلم والتقنية من الحضارة التي ولدتها الشيوعية ؟ ومع ذلك ، ما كان لهذا السلاح العقلي والعلمي والتقني ان يجد سبيله لولا ان حركه ودفع اليه ايمان ايدولوجي بلغ حد الصوفية .

لقد صدق عالم الاجتماع الشهير « غورفيتش » حين رأى ان الحضارة تنطلق في مجتمع من المجتمعات حين يعزم هذا المجتمع على ان يمسك مصيره بيديه وعلى ان يرسم حياته الخاصة ، وحين يعي في الوقت نفسه امكانات هذه السيطرة على مصيره ومستقبله . وعند ذلك يصطنع في سبيل الوصول الى رؤيته الجديدة شتى الوسائل العلمية والعقلية والتقنية والخلقية والفنية وسواها .

ولقد صدق ايضا « ريد فيلد » حين رأى ان الحضارة تتصف اولا وقبل كل شيء بحال عليا من الوعي لدور الثقافة . وهذا الوعي العميق المتوتر لدور الثقافة ، يعني بطبيعة الحال الايمان بالقيم التي تستطيع هذه الثقافة ان تولدها .

\*\*\*

وبعد ، بحث الدكتور زكي نجيب محمود يشير شجوناً كثيرة ، هيات ان يتسع المقام للافاضة فيها . وجل ما نريد ان نقوله امران :

اولهما ان « العقلانية » بالمعنى الحديث والمحدد لهذه الكلمة ( بمعنى رسم سبل الوصول ) سمة اساسية من سمات الحضارة في عصرنا ، بدونها لا نستطيع ان نفهم هذه الحضارة . وغيب هذة النظرة العقلانية في مجتمعنا العربي عامل اساسي من عوامل تخلفنا عن العصر . ونحن في هذا كله نلتقي مع الدكتور زكي . غير اننا لا نلتقي معه حين يعود ليفهم العقلانية فهما اخر ، يجعلها صنوا لتحكيم العقل في شؤون الحياة ، وحين يجعل من العقلانية ، بهذا المعنى ، الخاصة المميزة للحضارات قديمها وحديثها .

وثانيهما ان « العقلانية » بالمعنى الحديث للكلمة ليست سببا للحضارة الحديثة او لاي حضارة ، وانما هي نتيجة . ومنطلق الحضارة اخيراً هو ذلك الزواج بين « الرؤية الرسولية » التي تعني الايمان بمصير جديد للامة وللانسان ، وبين وسائل بلوغها وهي عديدة ، وعلى راسها التنظيم العقلائي والتفكير العلمي والاتجاه الى تسخير الكون والطبيعة ( الاتجاه التقني ) ، دون ان تنفصل هذه الوسائل كلها - على اهميتها - عن الابداع الفكري والفني والادبي والخلقي وسائر اشكال الابداع .

ومجتمعنا العربي - في سميهِ نحو تجاوز تخلفه وبناء حضارته - لا بد له من اجتماع هذين الطرفين : ارادة البناء وجمال الرسالة

والعزم على خلق حضارة عربية انسانية من جهة ( وهذه كلها امور تحتاج الى جذور انفعالية - عقلية تتجاوز « العقلانية » بمفهومها المحدد ) ، ثم امتلاك الاساليب العلمية والتقنية والتنظيمية التي تجعل من تلك الارادة ارادة فعالة ناجعة ، والتي تيسر سبل الوصول ، وتؤدي الى الاستخدام الامثل للموارد البشرية والمالية والمادية .

وخطا ان نظن ان مجرد امتلاك اساليب البحث العلمي والتنظيم العقلائي يؤدي الى خلق حضارة ، بل خطأ ان نعتقد ان مثل هذا الامتلاك ممكن اذا لم تحركه وتحرضه ارادة قومية مؤمنة برسالة الامة ودورها وامكاناتها . وتحريك مثل هذه الارادة ليس مجرد عمل «عقلاني» ، بل هو مستوى من الوعي والارادة والشعور بالذات ، له عوامله العديدة وله بواعثه الانفعالية الارادية فضلا عن بواعثه العقلية .

ان الدعوة الى « العقلانية » وحدها والدعوة الى العلم والتقنية وحدهما دعوة علمية مغلصة وهامة ، ولكنها ليست دعوة قومية ولا هي دعوة قادرة على ان تبني حضارة . ونظن الحضارة ، ويظل البناء القومي وراء هذا كله : انه في تحريض ارادة البناء و ارادة الحياة وفي بعث روح الرسالة . وعند ذلك تجد « العقلانية » دورها ويجد العلم والتقنية مكانهما ، وتصبح الوسائل في خدمة غايات محددة ، بل تمتلك الغايات ووسائلها المتفقة معها .

## « هؤلاء الصهاينة »

### ستبتلعهم الصحاري العربية »

شارل ديفول

بقلم : كمال التبيضاوي

رئيس الديوان السابق في رئاسة الجمهورية اللبنانية  
تفاصيل اسرار الخيانة المذهلة التي ادت الى كارثة  
الخامس من حزيران .

اول تحليل عربي عن ملابسات المؤامرة التي شلت  
تحركات الجيوش العربية ومنعتها من الالتحام بالقوات  
الاسرائيلية ، وعوامل النصر الذي حطم اسطورة اسرائيل  
في حرب رمضان ( اكتوبر ) .

يطلب من : مكتبة « اسكواير » - بيروت

ص . ب ٢٩٩٥ - ت ٢٤٨.٧٤